مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.	المجلد05/ العـدد 18(2021)، ص ص 117-135

مسألة الردة بين الأسرى الأسبان في الجزائر العثمانية 1505 -1792م

دراسة في: " الأسباب، الدوافع والمواقف "

The issue of renegades among Spanish captives in Ottoman Algeria. The study in : Reasons, motives and a attitudes.

حنان عماروش*	أحمد عصماني
جامعة البليدة02 (البليدة)	جامعة البليدة 02 (البليدة)
amrouchehananr@gmail.com	Ahamdosmani30@gmail.com

تاريخ الاستلام:10./05 /2021 تاريخ القبول: .....04../..07../.2021.

ملخص:

شكلت مسألة الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر إحدى أهم القضايا التي نوقشت بين البلدين من خلال المعاهدات أو المراسلات بين الحكام وضمن الأسرى وجدت عناصر تخلت عن الديانة الكاثوليكية وانضمت إلى الديانة المحمدية عرفوا بعدة أسماء" المرتدون أو المسلمون الجدد"، أحدثت هذه الفئة جدلاً واسعا في الأوساط السياسية والدينية وحتى الشعبية بإسبانيا الكاثوليكية لهذا كان على عاتق رجال الدين والآباء الفادين الإسراع في عملية الاسترداد حتى لا يكون الأسرى الآخرون عرضة لخطر الارتداد، ورغم جهود هؤلاء في تثبيت الحياة الروحية فهذا لم يمنع العديد من الأسرى والجنود من اختيار الإسلام وقد تباينت مواقف الحكومتين من مؤيد ومعارض لمسألة تحرير واحتضان هذه الفئة.

الكلمات المفتاحية : الأسرى الأسبان، مسألة الردة، إيالة الجزائر، إسبانيا، مواقف.

ت مفتاحية: ك. م.، ك. م.، ك. م.، ك. م.، ك. م.

Abstract:

The issue of Spanish captives in Algiers was one of the most important issues discussed between two countries; It has been done through treaties or correspondence between rulers. Amongst captives, there were people that had abandoned catholic faith and joined Islam, they got new names were called renegades or new Muslims.

The issue of renegades caused widespread controversy in the political, religious and even popular circles in Catholic Spain. Therefore, it was the responsibility of the redeemers to free the remaining captives so that they would not convert themselves to Islam. Despite their efforts to make spiritual life more stable they haven't prevented many captives and soldiers from choosing Islam. The positions of the two governments differed regarding support or opposition to the issue of liberating or even embarking this particular group.

Keywords: Spanish captives, The issue of renegades, The Regency of Algiers, Spain, The positions.

* ع

. مقدمة:

منذ القرن 15م عرف العالم مرحلة اشتداد الصراع بين الأديان والحضارات وبداية من القرن 16م اتخذ منعطفا دراماتيكيا وتحولا سياسيا بظهور الإمبراطورية العثمانية في الشرق والإمبراطورية الاسبانية في الغرب، وتبعا لتحول السياسي كان هناك تحول اجتماعي كالظهور عناصر دخيلة ساهمت في تشكيل تركيبة اجتماعية جديدة في المجتمعات الإسلامية بالأخص الولايات العثمانية في شمال إفريقيا "الأسرى والمرتدون و رياس البحر" خلقت هذه العناصر مجتمعات وسيطة لعبت دور الجسر السياسي والحضاري بين العالمين " الإسلامي والمسيحي". بالمناسبة كانت مدينة الجزائر من أكثر المدن الإسلامية جذباً لهؤلاء المرتدين وبطبيعة الحال فإن تحولاتهم كانت لصالح الإيالة حتى وان لم تكن كل التحولات نابعة من القناعة الدينية فإن أغلب المرتدين اختاروا الإسلام طواعية ولم يجبرهم أحد، ما يعطي تفسيرا واحدا أن المجتمعات الإسلامية كانت أكثر تسامحا من الناحية الدينية عكس اسبانيا التي نشأت فيها محاكم تفتيش ولم تقبل على أرضها سوى المسيحية الكاثوليكية وهذا بشهادة بعض معاصري الفترة من أسرى وفيما بعد مؤرخيهم وإن وجدت بعض التأويلات المضادة للإسلام فهذا بطبيعة الحال يعود للاختلاف العقيدة و المبادئ والإرث التاريخي.

فرغم الصراع الذي كان قائما بين البلدين " الجزائر واسبانيا" والذي يعتبر امتداداً للقرون الوسطى نجد العديد من الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر الذين ارتدوا عن دينهم وقد أحدثت الظاهرة جدلا واسعا في تلك الفترة سواء من قبل حكومتهم أو شعوب بلدانهم الأصلية حول إمكانية الرجوع إلى وطنهم الأصلي ومن أجل هذا كان يجب على المرتد إذا رغب في العودة عرض قضيته على محاكم التفتيش وهي من تقرر العفو أو العقاب حسب دوافع ارتداد الأسير وهذا ما سنحاول فهمه نحن من خلال الإشكالية التالية: **كيف تعاملت الحكومتين" الجزائرية والاسبانية" مع قضية ارتداد الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر؟. وهل تم مناقشة المسألة في المعاهدات والمراسلات بين البلدين؟.** حاولنا الإجابة على الإشكالية من خلال العناصر التالية:

1- ظروف تواجد الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر.

2- الممارسة الدينية للأسرى الأسبان في مدينة الجزائر :

2-1 جهود الآباء في تثبيت الحياة الروحية للأسرى المسيحيين.

2-2 صورة الإسلام في عيون الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر.

3- ردة الأسرى الأسبان بين الاختيار والإجبار.

4- المرتدون في نظر الأتراك الجزائريون والأسبان الكاثوليك.

2. ظروف تواجد الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر :

يُأسر معظم الأسرى على قوارب الصيد أو بالقرب من الساحل أو في حال اعتراض المسافرين في عرض البحر،[1] وقد عرض الباحثين Rudy chaulet et Olga Ortega في مقال لهما حالات وقوع هؤلاء الأسرى من خلال دراسة عينة للأشخاص وقعوا في الأسر وأعطى عدة احتمالات لوقوع هؤلاء :أهمها "... الحملات أو المعارك بين المسلمين والمسيحيين في شمال إفريقيا مثل حملة مستغانم الذي وقع فيها الكثير من الأسرى رفقة قائدهم ألكونت دالكوديت و أيضا تم القبض على بعضهم في منطقة البحر الأبيض المتوسط بالقرب من شبه الجزيرة الأيبيرية وعلى مختلف السفن التي تنقل الطعام إلى وهران أو تعود إلى شبه الجزيرة وتذهب إلى ايطاليا أو ملقة، كما تم القبض على بعضهم في المناطق الساحلية الاسبانية أو سواحل المناطق الأخرى للبحر الأبيض المتوسط ،[2] فمثلا عند استيلاء الأتراك على حصن البينيون 1529 م تم أسر حوالي سبعمائة جندي من الأسبان.[3] يستمر الأسر خلال القرن الثامن عشر وهذا ما يذكره المؤرخ الاسباني مكسيليانوا باريو" ...في الأربعينات من القرن 18 م كانت القرصنة الجزائرية في مرحلة مزدهرة إذ كانت تهدد السواحل الاسبانية بشكل مستمر سواء في الصيف أو في الشتاء وفي العديد من المصيدات أُسر أكثر من خمسمائة إسباني والتي تمت إضافتها إلى أكثر من سبعمائة من الجنود الفارين من وهران.." [4]

بعدما تم القبض على الاسبانيين كما ذكر سابقا يتم أخذهم كأسرى إلى مدينة الجزائر والغاية الأولى للبحارة هي الحصول على المال بعد فدائهم " تخليصهم" وقد عرفت بالاسم الصناعة البشرية أو التجارة البشرية، وما هو معروف ومتكرر أنه بعد مهاجمة سكان المناطق الساحلية يرفع علم الإنقاذ حتى يتمكن جيرانهم أو أقاربهم من دفع المبلغ المتفق عليه مع رئيس الحملة لكن في بعض الأحيان هناك من لا يحالفهم الحظ ويدخلون في متاهة الغموض والعقوبات.[5] وكما جرت العادة بعد وصول الأسرى المسيحيين إلى مدينة الجزائر يعترف القناصل الأجانب بأبناء بلدهم، ثم يختار الداي أسير مميز من كل ثمانية أسرى وبعد ذلك يرسلهم إلى سجون الدولة Los baños[6] del deylik وهي عبارة عن منازل كبيرة تكفي ل 15 إلى 20 شخص ويتم بيع الباقي في سوق الباتيستان المشهور Batistan. [7] تخوف الأسبان كثيرا من عمليات الأسر التي يقوم بها البحارة الجزائريون والخوف الأول هو ارتداد هؤلاء بالأخص الأطفال الصغار بعد فصلهم عن عائلاتهم فمهمة تحويلهم إلى الإسلام ستكون سهلة، في كوميديا صفقات الجزائر لثيرفانتس[8]" el trato

---

[1] Maximiliano Barrio Gózalo:(2003) , los cautivos españoles en Argel durante el siglo ilustrado, Universidad de Salamanca, cuad. diecioch, N4, p, 147.

[2] Rudy chaulet et Olga Ortega(2014), le rachat de captifs espagnols a Alger au XVIe siècle-le cas de la rédemption de Diego de Cisneros 1560-1567, cahiers de la Méditerranée, N87, p, 05

[3] عزيز سامح ألتر: (1989)، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر، محمد علي عامر، ط1، بيروت، دار النهضة العربية، ص، 87.

[4] Maximiliano Barrio: Los cautivos españoles, Op, Cit, p, 140

[5] Ibíd , P, 148.

[6] كلمة اسبانية تعني الحمامات ولكن هنا يقصد بها السجون .

[7] Noria Dolores torreblanca roladan :Malagueños cautivos en el norte de África "siglo XVIII" , Universidad de Málaga, p, 232.

[8] أُسر سيرفانتس من قبل القراصنة الجزائريون أثناء عودته إلى اسبانية في سفينة قالار Sol في تاريخ سبتمبر 1575 وبقي في الأسر الجزائري مدة خمسة سنوات أي إلى غاية سبتمبر 1580 احتجز وعمره آنذاك 28 سنة وبعد إطلاق سراحه أصبح عمره 33 سنة : أنظر:

de Argel" عرضت عائلة بأكملها للبيع بينما تم بيع ابنيهما الصغيرين منفصلين ولم يستطع والديهما الاعتراض واكتفوا بالدعاء لهما للبقاء في حضن المسيحية، وجاءت أيضا رواية أأخرى في سجون مدينة الجزائر " los baños de Argel " [1] تروي قصة فصل صبين صغيرين عن والديهما وقد تنبأ مشتريهما أنهما سيخدمان الديانة المحمدية في المستقبل.[2]

بالنسبة لأنواع الأسرى في ايالة الجزائر نجد أسرى الدولة أو deylik حيث يأخذ الداي مجموعة مميزة لخدمته وتكون هذه الفئة محظوظة من حيث المعاملة ، ويذهب الآخرون إلى الثكنات التركية للقيام بالوظائف العامة ويذهب الباقي إلى السجون Los baños. [3]

ويوجد نوع أخر يعرف بالأسرى الأفراد أو الخواص تنقسم هذه الفئة أيضا إلى مجموعتين:

- ✓ المجموعة الأولى: تشترى من قبل أفراد عاديين لخدمة المنازل و الحدائق وغيرها من الأعمال وتتوقف المعاملة الجيدة أو السيئة على حسب طبيعة سيده.
- ✓ المجموعة الثانية : تشترى من قبل تجار يمتهنون حرفة التجارة البشرية معظم التجار من الأندلسيين المطرودون من اسبانيا.[4] أنظر الشكل (01)

الشكل 01: جدول يوضح أنواع العبيد في ايالة الجزائر.

عبيد الملك	عبيد الأفراد " الخواص"
– الشراء من قبل الحكومة الجزائرية – مُتجهين لخدمة عظماء الحكومة الجزائرية أو الخدمات العامة – الاستقرار في الجزائر العاصمة	– الشراء من قبل أفراد عادين وبعضهم يشترى من قبل سكان الريف الموجهون للعمل الزراعي وتربية الماشية. – القيام بالأعمال المنزلية و المزارع والحدائق

Emilio Sola , José F.de la Peña: (1995), Cervantes y la Berbería " Cervantes mundo turco-berberisco y servicios secretos en la época de Felip II, España, Fondo de cultura Económica. P, 71. ، حول أعمال سيرفانتس نجد الكوميديات الثلاثة التي تعكس تجربة سيرفانتس الشخصية في الأسر إلى تجربة أدبية وهي : صفقات مدينة الجزائر " El trato de Argel" سجون مدينة الجزائر " los baños de Argel"، السلطانة العظيمة " La gran Sultana "، كان على سيرفانتس في أعماله وصف السنوات الخمس كما تعين عليه صياغة شخصية معينة وطريقة خاصة لفهم المشكلة لمعرفة المزيد حول أعماله الأدبية راجع :
I. García Aguilarl Gómez Canseco y J.Saez: (2016), El teatro de Miguel de cervantes, Marid, visar Libros,p,09

[1] يقدم سيرفانتس في هذه الرواية " معتقلات الجزائر" تجربة أسره بمدينة الجزائر وأيضا معطيات مهمة عن مدينة الجزائر والأسرى المسيحيون هناك و أيضا التقاليد الإسلامية، ما يزيد من أهميتها توظيفه لشخصيات حقيقية مثل ثريده ابنة الحاج مراد " Agi Morato" أحد القادة مدينة الجزائر، في معتقلات الجزائر استخدم اسم زهرة بدل ثريده التي وظفها في رواية دون كيشوط ويجعلها تحب أحد الأسرى وترغب في اعتناق الإسلام : لمعرفة المزيد أنظر : مارتين دي ريكار: مقاربة من الدون كيشوط، ترجمة وتعليق، عبد الله حمادي، منشورات الوطن، الجزائر، ص، 157-158.

[2] Ellen G, Friedman : (1939), Spanish captives in North Africa in the Early Modern Age, the University of Wisconsin press, 1939, p, 58.

[3] Noria Dolores :op ,cit, p, 232.

[4] Ibid : 233

المرجع : الشكل من إعدادي اعتمادا على المعلومات في المرجع التالي : Ismet Terki-Hassaine: Relaciones políticas y comerciales entre España y la Argelia otomana 1700-1830,pp,100-103

3. الممارسة الدينية للأسرى الأسبان في مدينة الجزائر :

1,3 جهود الآباء الفادين ورجال الدين في تلبية الحاجات الروحية للأسرى المسيحيين :

لقد ذكرت المؤرخة الأمريكية Fridmen Ellen في عملها " Spanish captives in North Africa in the Early Modern Age " أنه كان لرجال الدين عدة بعثات للأراضي الإسلامية تهدف للإنقاذ المسيحيين وهي ترجح أن القرن 13م كان بداية لممارستهم الدينية هناك، في سنة 1222م أصبح للجمعية الدينية Mercedarians راهب في غرناطة باسم قسيس التجار المسيحين chplain of the Christian merchants ومن مهاهم الرئيسية التجسس وتلبية الحاجات الروحية للأسرى المسيحيين، وللغرض نفسه أرسل the Spanish Franciscans and Dominicans بعثات إلى شمال إفريقيا. وبهذا يمكن القول أن الجمعيات الدينية Trinitarian and Mercedarian منذ القرن 13 م قد أرسلت بعثات إلى غرناطة وشمال إفريقيا، غير أنه لا توجد وثائق تبين هل كانت هذه البعثات خاصة أو بإشراف الدولة،[1] كان على الآباء الفادين حال وصولهم إلى شمال إفريقيا زيارة السجون وتحديد الأسرى الذين هم في خطر الارتداد من أجل تسريع عملية الخلاص.[2]

على حسب بعض ملاحظات الأسرى ورجال الدين الذين كتبوا حول مدينة الجزائر في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت الممارسات الدينية تدار بشكل عادي فمثلا الاحتفالات الدينية كانت متاحة للجميع الأسرى وبشكل ايجابي مقارنة مع الاحتفالات الموجودة في اسبانيا، ومن ملاحظات الراهب خيمينيس Jimenez أن الموكب لا يخرج إلى الشارع بل يبقى داخل السجون Los baños وبالنسبة للراهب بيرناردوا دي مونريMonroy de Beranrdo الذي احتجزته الحكومة الجزائرية مع راهبين آخرين وبقوا لسنوات عديدة بسبب رحلة فاشلة لعام 1609 م، حيث كرس هذا الأخير أكثر من عقد في خدمة الاحتياجات الروحية للمسيحيين، بالنسبة لقداس العذراء كان يقام كل يوم سبت وأيام الصوم الكبير كان يقام القداس الروماني الكاثوليكي في سجون مدينة الجزائر، أما الأسبوع المقدس يتم التحضير له بشكل واسع يتعاون فيه المسيحيون الذين لديهم مهارة في صنع الملابس للمذبح والزخارف الزهرية وحتى المسلمون كانوا يقرضون لهم الحي لتزينه، فعلى حسب ملاحظات Franciscan فرنسيسكان في القرن السابع عشر أن الزينة كانت واسعة النطاق مثل المدن الاسبانية أو أكثر.[3]

وهذا ما يذكره أيضا الراهب الإسباني هايدوا Haedo عن القداس كان يقام بشكل منتظم وعلى مدار السنة، أما في الأيام المقدسة فكان يقام بشكل مضاعف وبحضور عدد لا بأس به من الكهنة الذين كانوا متواجدين هناك،[4]

---

[1] Ellen G :Friedman, op ,cit, pp, 77,78.
[2] Ibid: p, 81
[3] Ibid : p, 81-82
[4] Ellen : op;cit,p, 80

وفي يوم الجمعة الذي يصادف عطلة للمسلمين

يرتاح فيه الأسرى ولا يخرجون للعمل، ويُستغل الوقت بتخصيص ساعات لشرح بسيط للإنجيل باللغة الايطالية أو الاسبانية مع شرح بسيط أيضا للعقيدة المسيحية، وبعد منتصف القرن 18م أصبح تلقين العقيدة المسيحية في كنيسة Iglesia del Vicariato مع إعطاء عملة صغيرة Medio baioco للأشخاص الذين يحضرون.[1]

الأسرى الذين يعيشون في المدينة سواء في السجون أو المنازل الخاصة لا يجدون صعوبة في حضور الشعائر الدينية ولكن الفئة التي تعيش في منزل الداي أو الثكنات العسكرية يصعب عليها فعل ذلك والشيء نفسه مع أولئك الذين يعيشون في الريف ومع ذلك يستطيع رجال الدين التقرب منهم وتشجيعهم بالبقاء مخلصين للمسيحية، أما بالنسبة للأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام لا يمكن التقرب منهم والاكتفاء فقط بإرسال المساعدة الروحية لهم بواسطة أسرى آخرين كي يتم إعدادهم للموت بشكل جيد.[2]

بالنسبة لتاريخ إنشاء الكنائس في مدينة الجزائر لهذه الفترة تتضارب حولها المعلومات ولكن من المرجح يعود تاريخ إنشاء أول كنيسة في السجون الجزائرية لسنة 1551 كنيسة سانتا كروز Iglesia de Santa Cruz التي تأسست في السجن الكبير baño grande والفضل الكبير في تأسيسها يعود إلى الحاكم الجزائري حسان باشا .[3] ونجد أيضا المستشفيات التي لم تقتصر وظيفتها في رعاية المرضى فقد كانت مثل مراكز دينية يُديرها مجموعة من رجال الدين التثليث تم تعينهم في الجزائر، وبتأسيس تلك المستشفيات توسعت الأنشطة الدينية وأصبحت أكثر تنظيما من قبل هؤلاء الذين بذلوا مجهودا لتنسيق العمل بين الأسرى المسيحيين والأعياد الدينية كما عملوا على تغطية احتياجات اللحوم بكل أنواعها في تلك الأعياد.[4]

2.3 صورة الإسلام في عيون الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر:

سنحاول فهم صورة الإسلام من خلال ما كتبه هؤلاء الأسرى وما أعيد تأويله وتفسيره في أبحاث ودراسات لبعض المؤرخين من نفس جلدتهم فمثلا في كتاب American Slaves and African" Masters " نجد أن صاحبه ينتقد بشدة الإسلام ويعلي من شأن المسيحية، وقد حمّل الترك والبرابرة مسؤولية العنف في البحر المتوسط لتلك الفترة وفي رأيه استمدوا تلك القسوة من الإسلام لكونه يدعوا إلى الاستبداد، أما المسيحية فقد رآها عكس الإسلام ديانة مبنية على التراحم والمعاملة الحسنة للآخرين ولتوضيح رأيه أكثر نستدل بقوله "...المسيحية مبنية على التراحم والمعاملة الحسنة للآخرين وتدعوا إلى نقاء الشخصية بينما علم محمد لأمته الإشباع الكامل لكل نزعة، المسيحية أمرت بإطعام الجياع والمساكين

---

[1] Maximiliano Barrio Gózalo : (2006), esclavos y cautivos conflicto entre la cristiandad y el Islam en el siglo XVIII, España, Junta de Castilla y león consejería de cultura y turismo, p, 128.
[2] Ibid: p, 129.
[3] Ellen: op, cit, p, 78.
[4] Ibid : p,100.

بينما المسلمون قد يموت العبد الجائع أمام أقدامهم دون أي شفقة وهذا لأنه لم يعد صالح لسوق...". [1] وبخصوص العبودية يوضح أن السياسة الاقتصادية والدينية التي كانت وراء العبودية المتوسطة من قبل المسيحية أو الإسلام هي أكثر تعقيدا لأنها قامت بين كتلتان دينيتان متعاديتان وجدت معاملات ومبادلات بين الطرفين كما وجدت حروب بمعنى أخر وجدت حدود دينية وقومية بين سكان البحر الأبيض المتوسط وبين العبودية والحرية،[2] وفي هذا الشأن بينت الباحثة الأمريكية Fridmen عكس ذلك بأن التسامح الديني كان موجود في شمال إفريقيا عكس أوروبا الغربية في تلك الفترة :

" ...على الرغم من أن مُعاملة الاسبانيين وغيرهم من الأسرى المسيحيين في شمال إفريقيا كانت بشكل عام نموذجي لمعاملة السجناء والعبيد في أوروبا الغربية، كانت فترة استثنائية في مسألة الدين، كانت معظم أوروبا ممزقة بسبب الصراع الديني، والذي تجلى في بعض الدول اضطهاد ليس فقط للمواطنين غير المطابقين، ولكن أيضا لتجار الأجانب أو البحارة الزائرين الذين كانوا من أتباع ديانة معارضة، ولكن في شمال إفريقيا كان التسامح في مسائل الضمير سياسة عامة ولم يطبق فقط على غير المسلمين الذين يقومون في المنطقة أو يزوروها، ولكن للأسرى المسيحيين أيضا، كان الدافع وراء منح الامتيازات الدينية للأسرى، جزئيا، التقاليد الإسلامية توصي باحترام أهل الكتاب، والأكثر قوة كانت الرغبة في الاحتفاظ بالقيمة الاقتصادية للأسرى، والتي عادة ما تفقد، أو على الأقل تقلص إلى حد كبير، عندما يرتد العبد عن دينه ... [3]"

صحيح وجدت أحيانا مواقف ضد الكنائس ولكن بشكل استثنائي فعلى سبيل المثال في سنة 1579م وقعت مجاعة خطيرة بمدينة الجزائر ولجأ الحاكم للأخذ المشورة من المرابطين وقد نصحوه بإيقاف الخدمات الدينية للأسرى المسيحيين وقد تم حظر القداس لبضعة أيام ولكن سرعان ما عادت الخدمات إلى العمل، وفي عام 1666م وصلت أخبار تفيد أن مرتدا كان ضمن البحارة الجزائريون تم أسره وبعد ذلك أُحرق من قبل الجنويين فأمر الديوان بحرق جميع الأشياء المقدسة الموجودة في كنائس السجون ولحسن حظهم وصل الخبر إلى الأسرى وتم إخفائها من أعين الجزائريين.[4]

كما لا يمكن تجاهل المساعدات المالية التي قدمها سكان شمال إفريقيا للكنائس، إذ وجدت بعض التبرعات المالية من قبل المسلمين أو الشمع أو النفط للمصابيح، في هذا الصدد قال غراسيان Gracion " ... عندما كان يدخل الأتراك الكنيسة كانوا يعطون بعض القطع النقدية، لقد رأينا بالفعل أنه خلال الأعياد أعطوا للأسرى حريرا وديباجا لتزيين الكنائس، بشكل عام أظهر سكان شمال إفريقيا احتراما كبيرا للرجال الدين الكاثوليك وإيمانهم .... انه من المدهش دائما رؤية الاعتبار الذي كان لدى المسلمين لرجال الدين في سجون الجزائر...".[5]

ولفهم طبيعة العلاقة بين الإسلام والأسرى المسيحيين نأخذ نموذجا كالأسير الأسباني المشهور سيرفانتس هذا الأخير دُرست حوله عدة أبحاث في هذا الجانب ولعل أشهرها للباحث Eisenberg ناقش هذا الأخير عدة إشكاليات ومسائل تخص حياة الأسر لسيرفانتس، كعلاقة هذا الأخير بالإسلام ولماذا لم يبقى سيرفانتس في مدينة الجزائر ويحقق

---

[1] Christino E, Sears : (2012) , American Slaves and African Masters "Algiers and the Western Sahara, 1776-1820 United States of America ,Library of Congress Cataloging, p, 153.
[2] Ibid: p, 09.
[3] Ellen : G, Friedman :p, 77.
[4] Ibid : p, 87.
[5] Ibíd. : p, 86.

المتعة والثروة مثل ما فعل الكثير من المرتدين؟. قدم Eisenberg بعض الافتراضات التي تفسر عدم بقاء سرفانتس في مدينة الجزائر وتفضيله الرجوع إلى اسبانيا، أهمها الحنين العائلي وأيضا مهنته الدينية والأدبية وعلى الرغم من ذلك راودت الشكوك الكثير من المختصين ومازلت بشأن سيرفانتس والإسلام؟، هل اعترف بنفسه كمسلم في الجزائر العاصمة؟ .[1]

ولكن سيرفانتس كان متأثرا وقلقا لمصير الأسرى الأسبان بمدينة الجزائر سواء من العقوبات الجسدية أو الدينية بالأخص الخضوع للقوانين الإسلامية واعتبر الأموات شهداء مثلهم مثل المسيحيين الأوائل كما انتقد بشدة أثرياء أوروبا من عدم تقديم مساعدات لإخوانهم الأسرى أو تهاون الحكومة من شن حملات عسكرية للقضاء على القرصنة،[2] وبالنسبة للأنطونيوا ميدنيا Antonio Medena يناقش في دراسته مسألة الإسلام و ثيربانتس Cervantes y el Islam ، ويؤكد على أهمية مراعاة وضع ثيربانتس الأفضل في مدينة الجزائر لأن معظم الأسرى الأوروبيين قهرتهم الظروف القاسية وقبلوا الإسلام ومن ثم تشكلت جمهورية القرصنة التي خدمت قضية المسلمين في البحر المتوسط، كما سيطر اللاجئون الأندلسيون على صناعة الأسلحة و الجيش والتجارة في الجزائر العاصمة .[3]

بالنسبة لصورة الإسلام لدى الأسير الاسباني الأخر Diego Galán تكون مشابهة لزملائه من الأسرى فنجاته من الارتداد اعتبرها فضيلة من الله بعد أن حرره من العبودية ومن الخضوع للقوانين الإسلامية مثل ما فعل معظم المسيحيون، وحسب رأيه كان تحول هؤلاء فقط لأجل الحرية ويسهل عليهم التخطيط لرجوع إلى أرض الوطن والبعض الأخر كان اختياري إما بدافع الجهل أو بغرض تحسين ظروف العيش.[4]

الكثير من الدراسات فسرت أسباب الارتداد بسبب الحرية الجنسية لدى المسلمين فهذه María Antonia Garcés التي فسرت ظاهرة ميول الأسرى إلى الإسلام من أجل إشباع الغرائز الجنسية فحسب رأيها أن الإسلام يدعوا إلى ذلك مستدلة بالآية قرآنية في السورة 2.223).[5] في سنة 1648 تم محاكمة المرتد Alcaid Morat غيابيا بواسطة محاكم التفتيش وقد عاش هذا الأخير في مدينة الجزائر منذ عام 1630م كان لديه أربع زوجات واحدة مغربية" مورية" وواحدة تركية وامرأتين وهذا لأن القرآن يرخص بتعدد الزوجات [6] صحيح أن الإسلام يسمح للرجل بتعدد الزوجات إذ يستطيع الزواج من امرأة واحدة أو امرأتين أو ثلاث نساء أو أربع، ولكن وفق شروط وضعها القرآن ولعل أهمها العدل بين الزوجات لقوله تعالى " فان خفتم آلا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم ذلك أدنى ألا تَعُولوُا " [7]

---

[1] Antonio Medena Molera: (2005), Quijote e Islam, España, edicionescarena, p, 41

[2] Daniel Eisenberg : (1996), Cervantes , autor de la Topografía e historia general de Argel publicada por Diego de Haedo, Cervantes: Bulletin of the Cervantes Society of America, N 16. , p , 36.

[3] Antonio Medena , op,cit, p, 37

[4] Diego Galán: (2011), Relación de cautiverio y libertad de Diego Galán : Espuela de plata, España, p, 27,28

[5] María Antonia Garcés:(2005) , Cervantes en Argel " Historia de un cautivo", Gredos, Madrid, Biblioteca Románica Hispánica ,pp. , 202-203

[6] Ibid : p, 202-203

[7] الآية 03 من سورة النساء.

4. ردة الأسرى الأسبان بين الإجبار و الحرية:

هناك فئة من المجتمع الأوروبي فضل الاندماج والانصهار في المجتمع الإسلامي والتخلي عن المسيحية عرفوا باسم المرتدين أي أولئك الذين نبذوا الديانة المسيحية واعتنقوا الإسلام معظمهم من العبيد دفعتهم الظروف بحثا عن حياة أفضل ولكن إنكار معظمهم كان اختياري وإرادي والأقرب إلى ذلك الجنود الفارون من الحاميات الاسبانية بالأخص من وهران إلى مدينة الجزائر.[1] كما لا ننسى أن مدينة الجزائر كانت محل جذب وإغراء لما تميزت به من هدوء و مكاناً لجمع الثروة والسلطة، فارتداد الأسرى المسيحيون يسمح لهم بتحسين ظروف العيش كما يصبح لديهم حظوظ أكثر في الحصول على مناصب عليا لدى الحكومة الجزائرية وجمع الثروة والسلطة،[2] وقد شكلت هذه الفئة جسرا في العلاقات بين حوضي المتوسط حيث كان لهم تأثير قوي في السلطة بالخصوص خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ثم يبدأ تدريجيا في الانخفاض إلى غاية القرن 18 م سواء من حيث العدد أو التأثير على دواليب السلطة ورغم ذلك لم يفقدوا كل محققوه من ثروة ومال.[3]

بعدما تندمج هذه الفئة بشكل جيد في المجتمع الجزائري يصبح معظمهم يتقن اللغة التركية وبعضهم اللغة العربية، كما يتزوج الكثير منهم بنساء المسلمات وفي العادة ترتبط المرأة في أذهانهم بفكرة الحرية فلهذا عندما يرغب المُلاك في إدخال احد عبيدهم إلى الإسلام يعدهم بزواج سواء من بناتهم أو بنات أخواتهم أو من نساء مطلقات أو أرامل أو مسيحيات مرتدات. [4] بعض مؤرخيهم كما أشرنا سابقا أرجع أسباب الارتداد إلى الحرية الجنسية التي يسمح بها الإسلام، فعلى حسب رأيهم أن الشريعة الإسلامية تدعوا المؤمن إلى إشباع غرائزه الجنسية فيسمح للرجل بأن يكون له أربع نساء، كما أن الاندماج في المجتمع الإسلامي عن طريق الزواج يسمح للمرتد من تحسين وضعه الاقتصادي والاجتماعي والتي غالبا ما يكون ببنات المرتدين، وعادة ما يوحد هذا الزواج عائلات المرتدين من نفس الأصل : الميوركان أو الكناريين أو الاندلسين أو الكتالونيين مكونين بذلك عائلات قوية ومتماسكة.[5]

وكما ذكر من قبل أن الأسر في العادة يأسر عائلات بأكملها، وهذا ما أقلق الاسبانيين كخوفهم الشديد على الأطفال الصغار لأن الوالدين كانوا عاجزين في الاحتفاظ بهم والاكتفاء فقط بالدعاء لهم حتى يبقوا في رعاية المسيحية،[6] ولكن في الشريعة الإسلامية لا يسمح بفصل طفل عن والدته قبل أن يفقد أسنانه الأولى وهكذا يحافظ الطفل على الإيمان المسيحي، في عام 1774م تم أسر امرأة مع ابنتين واحدة يتراوح عمرها سبعة أشهر والأخرى اثني عشر سنة تم شرائهن

---

[1] بونو سالفاتوري : (1985)، وضع الجاليات الأوروبية في المغرب، أعمال الملتقى الثامن حول الفكر الإسلامي، ايطاليا، مجلة الأصالة، السلسة الرابعة، العدد 25، ص، 147.

[2] وليام سبينسر : (2006)، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الجزائر، دار القصبة للنشر، دط، ص، 98-99.

[3] Maximiliano Barrio :Esclavos y cautivo…, op,cit, p, 183

[4] Ibid : p, 204.

[5] Maximiliano, Esclavos…, op,cit, p, 204.

[6] Ellen: op, cit, p, 58.

من قبل تركي جزائري وقد حاول هذا الأخير الضغط على الفتاة لدخول الإسلام من أجل الزواج به ولكن بفضل دعم والدتها رفضت الخضوع ولم تتخلى عن المسيحية. وان كان معظمهن يستسلمن في نهاية المطاف فكتلينا Catalina التي استولى عليها الأتراك كطفلة صغيرة رغم تمسكها بدينها إلا أنها خضعت للأتراك [1] حاول مكسيليانوا فهم عالم المرتدين وقد طرح سؤالا جوهريا حول الظاهرة : هل كان التحول إلى الدين الإسلامي تحول حقيقي وعن قناعة لدى هؤلاء؟. أحيانا يتبع التحول شعور باللامبالاة وأحيانا امتزاج بين الديانتين المسيحية والإسلام ولكن يجب أن يوضع في الحسبان أن معظم المرتدون الذين يعودون إلى ارض الوطن طوعا أو قسرا فإنهم يشكلون نسبة قليلة من هؤلاء الذين يفضلون البقاء في ارض المسلمين، فمثلا كان هناك أربعة مرتدين من أصل مايورقي Mallorquines مقيمين بتونس في الثلاثينات من القرن الثامن عشر رجع واحد فقط إلى الأرض المسيحية والبقية فضلوا البقاء في الوطن المتبني، من بينهم خوان سيرا Juan serra هذا الأخير ذهب طواعية إلى الجزائر وبعد ذلك أعلن ارتداده عن المسيحية واعتنق الإسلام لكن بعد سنوات قام بجريمة قتل فاضطر للهرب إلى تونس وهناك امتهن القرصنة ووصل إلى منصب الرياس ومن ثم تزوج بامرأة تونسية وقد عَرض عليه الآباء الفادين فكرة العودة إلى palama رفقة عائلته المتواجدة في ميوركة Mallorca لكنه رفض وبقي هناك إلى أن جاءته المنية سنة 1740م.[2]

لم تتغير أسباب الارتداد لدى المسيحيين فما كان أواخر القرن الخامس عشر ميلادي بقت نفسها في القرن الثامن عشر معظم المرتدون هم من فقدوا الثقة في المخلصين و خوفهم من العبودية ومواجهة المصير المجهول لهذا فضل معظمهم فقدان الروح على الجسد، وُوجد نوع أخر اختار الارتداد بغية الوصول إلى الثروة والمناصب العليا التي لم يصلوا إليها في بلدانهم الأصلية.[3] وكملاحظة يجب الإشارة أن سكان شمال إفريقيا لم يشجعوا الارتداد خوفا من زوال فوائدهم الاقتصادية لأن الآباء الفادين رفضوا تخليص هذه الفئة كما أن المرتدون بعد دخولهم الإسلام لا يذهبون إلى العمل في سفن قالار وهذه من الأسباب التي جعلت الملاك يرفضون ذلك.[4] ومما سبق فإن معظم المرتدين الذين صاروا مسلمين لم يجبرهم أسيادهم لأن ذلك يمثل خسارة لهم، ولكن الشيء المهم بعد ذلك تحسن ظروف المرتد إذ يصبح له الحق في الحرية باعتباره مسلما جديدا وان ضاعت منه فرصة العودة إلى وطنه الأصلي فعلى الأقل يتخلص من الأعمال الشاقة ويصبح كمولى لسيده له الحق في ارث سيده باعتباره فرد من العائلة .[5]

وهذا الأسير البرتغالي Joao Mascarenhas الذي كان أسيرا في مدينة الجزائر بين 1621-م 1626 يشير إلى نفس الفكرة السابقة في أن بعضهم تحول عن قناعة وعن حُسن النية وقد أعلنوا علانية أنهم في خدمة الدين

---

[1] Maximiliano: Esclavos…, op,cit, p, 186.
[2] Ibid, p, 199.
[3] Maximiliano: op,cit, pp, 189-190.
[4] Ellen : G, Friedman, op,cit , p, 90.
[5] كورين شوفاليه : (2007)، الثلاثون السنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، تر، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، ص، 62،63.

الإسلامي و أعداء للمسيحية، وإذا رغب أحدهم في الفرار والرجوع إلى بلده الأصلي ينكر ذلك ويبرر أن تحوله كان غير حقيقي وقد اعتبرهم هذا الأخير كاذبون لا يمكن الثقة فيهم لان هؤلاء في رأيه يعيشون مع المغاربة والمسيحيون معاً .[1] ولهذا السبب كان لا يسمح للمرتدين بامتلاك زورق خوفا من هروبهم وإنما يسمح لهم بامتلاك سفينة كبيرة مشتركة كي يستعملوها في أعمال القرصنة فمعظم الجنود الكبار في البحرية كانوا من المرتدين.[2]

التستر وراء الردة لأجل الهروب إلى اسبانيا كانت كثيرة حيث يستغل هؤلاء حرية التنقل للهروب سواءً إلى الثكنات الاسبانية في وهران أو الفرار إلى السواحل الاسبانية ، فهذا الأسير Felipe Nochela الذي أُسر من قبل البحارة الجزائريون في شهر نوفمبر 1734م، بعد سنوات من أسر هذا الأخير كان قد فقد كل أمل في تخليصه سواء من طرف عائلته أو الآباء الفادين فكان السبيل الوحيد لاسترجاع حريته إعلانه دخول الإسلام وكان له ذلك في 1 فبراير 1742 وبعد إحدى عشر سنة من ارتداده شارك في عملية بحرية حيث كان على متن قارب رفقة عشرون بحار وعند اقترابه من بلدة Arta استغل فرصة انشغال البحارة ليهرب ويختبأ في الغابة وبعد عودة السفينة الجزائرية خرج من اختبائه وكانت هذه حجته استخدمها أمام محاكم التحقيق.[3]

في بعض المرات كانت هناك بعض المحاولات لتحويل الأسرى ذوا المهارات العالية فمثلا في عام 1719 أقدم حاكم الجزائر في عرض مزايا عظيمة لصانع اسباني أُعجب بعمله وبالفعل ارتد هذا الأخير، كما حاول أيضا الملاك تحويل عبيدهم المميزون، أما النساء فان أراد مالكها الزواج منها فانه يعرض عليها دخول الإسلام، فعن الأسيرة برناردا دي لتوري"Bernarda de la Torre" من أصل ألمرية كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر سنة بقت في اسر ثلاث سنوات من 1666–1669 م تقول أنها عانت كثيرا من ضغوطات سيدها ومحاولاته المتكررة لأجل إقناعها في التحول والزواج منه، وبالنسبة لفئة الأولاد الصغار كانوا من المرشحين الجيدين لإدخالهم في سلك الانكشارية ودين محمد "عليه الصلاة والسلام" .[4]

هناك حالات أخرى تتسارع في زيادة الارتداد كرحيل الآباء الفادين بسبب نقص الموارد المالية أو توجيه مساعداتهم إلى الكنائس عوض إنقاذ الأسرى و أحيانا تفشل عملية التفاوض حول الاسترداد أو تتأخر وهنا الأسياد يُشددون في معاملة أسراهم لتسريع عملية بيعهم وقد ذَكر مدير مستشفى الجزائر في عام 1765م أن معظم الذين تخلوا عن دينهم كانت بسبب المعاملة السيئة من قبل أسيادهم بعد فشل عملية الفداء.[5] لقد كان لرجال الدين دورُ كبير في إنقاذ الأسرى من الارتداد خصوصا من يمتازون بمهارات مثل " بناة السفن والجنود والمهندسين والمعماريين وغيرهم.[6] في القرن السابع عشر بذلوا جهودا كبيرة في التحاور مع الحكومة الجزائرية بشأن إنقاذ الأسرى ولعل الفئة التي كانت من أولوياتهم هي

---

[1] Joao Mascarenhas :(1993) , Esclave A Alger récit de coptivité de Joao Mascarenhas 1621-1626, tr de portugais, Paul Teyssier, Paris, chandeigne , p, 114.

[2] كورين شوفاليه : نفسه، ص، 63.

[3] Maximiliano : Esclavos…, op,cit, p, 189-190.

[4] Ellen: op, cit, p, 89.

[5] Maximiliano: esclavos…, op,cit , p, 195.

[6] كورين شوفاليه : مرجع السابق، ص 63.

فئة النساء والأطفال باعتبارها فئة ضعيفة يسهل إدراجها إلى دين محمد وانضمام إلى فئة المرتدين.[1] وما كان يحزن هؤلاء عند قيامهم بصفقة فداء لصالح الأسرى ثم لا يلتحقون بسفن الإنقاذ مفضلين البقاء على الأرض المتبنية وأغلب هؤلاء من تم أسرهم في سن الشباب، فمثلا في سنة 1723 قام رجال الدين باسترداد بعض الأسرى من مدينة الجزائر ولكن سرعان ما وصلتهم أخبار تفيد برفض شابين قد تم استردادهم.[2]

5. المرتدون في نظر الأتراك الجزائريون و الأسبان الكاثوليك:

بالنسبة ل Salvatore Bono اعتبر المُرتدون الأبطال الحقيقيون للحرب القرصنة وهمزة وصل وتأثير بين العالمين المتعارضين " الأوروبي المسيحي، العربي الإسلامي" لهذا السبب ارتبط تاريخ القرصنة في أذهان معظم المؤرخين بالتاريخ المرتدين، وقد تنوعت جنسيات وأصول هؤلاء كالابيريين والفرنسيين والنابوليين، البنادقة وأيضا الهولنديين والألمان والانجليز،[3] بالنسبة للراهب البرتغالي دي سوسا فقد استخدم مصطلحين متضادين " الشهيد والشرير بامتياز" بالنسبة للمصطلح الأول يقصد به الأسير الذي حافظ على إيمانه المسيحي و الشرير يكون المرتد القاسي والغادر الذي لا يُكرم إلا بالتوبة، تناول الكاتب في القصة 23 كلمة المتحول أو المتغير وهنا تنطبق الكلمة على هؤلاء هؤلاء المسيحيون الجدد أي المغاربة الذين قبلوا المسيحية طوعا أو كرها، والبعض منهم من فر إلى الأراضي الإسلامية وعاد إلى دينه القديم وفي نفس الوقت وُجد المتحولين على الضفة الأخرى أو المسلمون الجدد أي أولئك الذين أصبحوا مغاربة أو أتراك مرتدين.[4]

بعد الارتداد يحصل معظم المرتدين على حرية التحرك والتجول في المدينة والعمل في النشاط التجاري، ويصبح لهم دور مهم في بلدهم المتبني فمثلا يستطيع الجنود الأسبان الفارين من ثكنات شمال أفريقيا الاندماج بسهولة في الجيش الانكشاري والقرصنة البحرية.[5] وبخصوص إجراءات التي يقوم بها الأسير حتى يتم قبوله في الإسلام ترديد عبارات تملى عليه ثم يتبعه حفل الختان وتغيير اسم، بالنسبة ل Bortolome y Lucile في كتاب Los cristianos de Ala في نظرهما التخلي عن المسيحية ودخول الإسلام شيء بسيط "... من الناحية النظرية كان عبور الحد الديني بين المسيحية والإسلام أمرا بسيطا للغاية ترديده عبارة قصيرة، لا اله إلا الله محمد رسول الله ثم يرفع مؤشر يده اليمنى إلى السماء..."[6] بالنسبة لمراسيم دخول الإسلام سنأخذ نموذجا لتوضيحها أكثر فهذا أحد الأسرى اسمه Mallorquín Juan

[1] Mercedes García-Arenal-Miguel Ángel de Bunes: (1992), Los españoles y el norte de África siglos XV-XVIII, España, Editorial Mapfre p, 237.
[2] Maximiliano: Esclavos…, op,cit, p, 193.
[3] Antoño de Sosa: Dialogo de los mártires de Argel, Madrid, España, Hiparión, p, 41
[4] Ibid: p, 40.
[5] Maximiliano : Esclavos…, p, 201.
[6] Bartolome y Lucile Bennassar: Los cristianos de Ala "la fascinante aventura de los renegados tr, José Luis Gil Aristu , Nerea, p, 350-351.

من ميوركة في عام 1721م انتقل إلى مدينة الجزائر وعاش لمدة سنة حرا يمارس التجارة وبعد ذلك أنكر العقيدة المسيحية ودخل الديانة المحمدية، بعد ارتداده ذهب إلى منزل الداي وتم إعداد حفل لأجله أول شيء قام به هو رفع السبابة عن يده اليمنى وقوله الشهادتان في اليوم التالي أعلن اعتناقه للإسلام وخرج إلى شوارع مدينة الجزائر ثم ركب حصانا كما يفعل جميع المرتدين ثم تخلى عن ثوبه المسيحي وارتدي اللباس التركي مع العمامة وقام بقص شعره تاركا الجزء العلوي منه، وبعد ثمانية أيام قاموا بختانه بقي في السرير لمدة خمسة عشر يوما على الأقل حتى مزاولة علاجه استمر الم جرحه لمدة طويلة ولشفائه استخدمت بعض المساحيق والأقمشة وفي الأخير غير اسمه من خوان إلى سليمان.[1]

ولكن وجدت حالات رفض ضد ارتداد بعضهم من قبل الحكومة الجزائرية فمثلا في الشهر المبارك بالضبط في ليلة 27 من رمضان المواقف ل شهر فبراير 1775م استغل أسير اسباني الموكب المُقام في مكان Santon de sidi Abdel Kader " ولي سيدي عبد الرحمن " وعرض رغبته في اعتناق الإسلام، فرح الناس لعرضه لكن الداي رفض طلبه وتنبأ منه أن لن يكون مسلما صادقا، ربما التخلي عن الإيمان لهؤلاء يفقدهم كل فرص الإنقاذ من طرف حكومتهم لكن على الأقل سيحظون باحترام دائم من قبل الدولة المعتمدة .[2] في حين البعض رآهم مُحتقرين مثل Morsy مرسي وقال فيهم أنهم يتقلدون المهن الدنيئة كما لا يحترمهم المغاربة وعند محاكمتهم لا يحاكمون لا بصفتهم مسلمون ولا مسيحيون، ولكن هذا لا يعني أنهم لا يُحسنون أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فمعظمهم يحصل على مهنة عالية سواء في الجيش أو الحكومة كما يندمجون بشكل جيد في المجتمع الإسلامي مكونين تجمعات مشتركة برجال من نفس الجلدة والحالة: مثل البيلاريين، الكناريين، الجنويين، النابوليين، الصقلين، والمالطيين، هؤلاء يتزوجون من بناتهم كما يتضامنون مع أسرى آخرون لم يحصلوا بعد على حريتهم بعد كشرائهم لخدمة بيوتهم حتى لا يتعرضوا للأعمال شاقة والعقوبات.[3]

روى الراهب خيمينيس Jiminez حادثة جرت في أكتوبر 1718م تروي قصة رفض الحاكم الجزائري والذي كان هو نفسه مرتد ارتداد عشرة من الأسرى المسيحيون، حيث قام بمعاقبتهم بشدة لعدة أيام وهذا لاعتقاده أن دخولهم الإسلام لم يكن عن قناعة وحقيقية وإنما من أجل تحسين أوضاعهم وتخلص من الأعمال الشاقة فقط،[4] لكن في بعض الحالات نجد المسلمون هم من شجعوا الارتداد ففي سنة 1559م وُجد الآلاف من الجنود الأسبان في مدينة الجزائر نتيجة الهزيمة الاسبانية في معركة مستغانم للعام السابق، وكان حاكم الجزائر يخطط للحملات العسكرية ضد حكام شمال إفريقيا فعرض على هؤلاء فكرة الارتداد والالتحاق بالجيش مقابل الحصول على الحرية فقبلت أعداد كبيرة من الأسبان عرضه،[5] يرجع سبب رفض الملاك ردة الأسرى المسيحيين بسبب التأثير السلبي على الربح الاقتصادي وان كان هذا التحول لا

---

[1] Maximiliano : Esclavos…,pp, 196, 197.
[2] Ismat Terki: (2011), Relaciones políticas y comerciales entre España y la Argelia Otomana 1700-1830 , España, Universidad de Alcalá, p, 110-111.
[3] Maximiliano : Ibid, p, 203.
[4] Ellen : G,F,op,cit, P, 89.
[5] Ibid ,: p,89.

يعطي لصاحبه الحرية المطلقة من العبودية ولكن يمنع التجارة الربحية به والاكتفاء فقط ببيعه للمسلمين الذين لديهم بطبيعة الحال نفس الأسباب لعدم شرائه وبهذه الطريقة يستفيد المرتد من قوته العاملة والتي يساعده في دفع سعر حريته.[1]

بالنسبة للجنود الأسبان الفارين من الثكنات الاسبانية إلى مدينة الجزائر، فبعض التقارير الفرنسية تشير إلى أعداد في المستوى حوالي 6000 هارب من الحاميات العسكرية الاسبانية لمدينة الجزائر بين الفترة 1733-1786 وتزيد نسبة الارتفاع في الفترات اللاحقة، وبالنسبة للمعطيات فونتير دي بارادي يشير إلى أن عددهم وصل المائة سنويا. يوجد تفسيران لهذه الظاهرة إما أن تكون الثكنات الاسبانية في وهران عبارة عن جحيم أو أن حياة العبيد في مدينة الجزائر داخل المجتمع الإسلامي كانت أحسن ولم تكن بتلك الفظاعة التي صورتها لنا ملاحظات رجال الدين و الآباء الفادين[2] يجب التأكيد أن أسر المسيحيين في الأراضي الإسلامية بغض النظر عن ما قاله رجال الدين لم يكن يمثل أي سوء حظ بعيدا عن ذلك من الحرب التي دامت قرون والتي كانت تخوض ضد الإسلام ليس هناك أي سجل بأن الأسرى المسيحيين لمجرد كونهم تعرضوا عموما للتعذيب والقتل و أقل إجبارا على اعتناق الإسلام.[3]

تناول سيرفانتس في رواياته شخصيات مثلت المرتدين بعضها لشخصيات حقيقية والأخرى خيالية فنجد في دون كيخوت في الجزء الخاص بالأسر يحكي قصة أسره مشيرا إلى بعض حكام الجزائر الذين شاركوا في معركة ليبانت منهم الحاكم علج علي الذي كان سبباً في أسره حيث أخذه بعد معركة ليبانت إلى القسطنطينية وبعد استرجاع حلق الواد توفي علج علي، وفي رواية حول هذا الأخير تشير أن ارتداده كان رغبة في الانتقام لتركي ظلمه سابقا.[4] وقد وظف سيرفانتس شخصيات حقيقية الحاج مراد وابنته زريده" Zoraida ومرتدون مسيحيون تدور القصة في هذا الجزء حول المرأة العربية ثريده التي أرادت مساعدة الجندي الاسباني Saavedra رفقة أصدقائه وكانت تراسلهم برسائل ولجهلهم اللغة العربية أرسل طلب المساعدة إلى المرتد الاسباني المورسي " Murcia " لتمكنه من اللغة العربية وقد تم اختياره لأنه شخص موثوق كما أن المرتدون إذا رغبوا في العودة إلى ارض المسيحيين عليهم أن يحضروا معهم بعض شهادات للأسرى رئيسين توحي أن المرتد كان رجل لطيف في معاملته للأسرى وكان لديه رغبة في العودة إلى عائلته ووطنه، في هذا الجانب كان نية المرتدين تختلف من شخص لأخر البعض منهم كانت لديه نية حسنة في العودة إلى دينه وبعض الأخر يستخدمها من اجل الربح والتجارة، وعند مواجهة الكنيسة يشرحون أن عودتهم للأرض المسيحيين من اجل البقاء في العقيدة المسيحية وهكذا يكسبون تصالح مع الكنيسة وإذا رغبوا في العودة إلى بلاد البربرية من أجل مزاولة عملهم ودينهم السابق فيكون لهم ذلك، نعود للمرتد الاسباني هذا الأخير عندما قرأ الرسالة وعلم محتوياتها التي تدور حول مسألة

---

[1] Maximiliano : Esclavos…, op,cit, p,184.

[2] منور مروش : (2009)، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني " القرصنة، الأساطير، والواقع، دط، ج2، الجزائر، دار القصبة للنشر، ص، 393.

[3] Antonio Medena : op,cit,p, 39,40

[4] Miguel de Cervantes:(2015) ,Don Quijote " I. XL" , España, Real Academia española, p, 409.

مساعدة المرأة الجزائرية صاحب الرسالة و بعض أصدقائه في عملية تحريرهم توسل إليهم وطلب أن يثقوا فيه وأنه سيخاطر بحياته من أجل حريتهم وبعد ذلك أخرج صليبا معدنيا كان مخبأ في صدره كدلاله على وفائه وإخلاصه للمسيحية.[1]

بعد عودة سيرفانتس إلى إسبانيا طلبت منه الحكومة الاسبانية شرح خمس سنوات التي قضاها في الأسر الجزائري حيث وجهت له عدة تهم أخطرها الشذوذ الجنسي، نشر الدكتور Blanco de Paz شائعات تفيد أن سيرفانتس كانت له علاقات غامضة مع Agi Morato و غير أخلاقية مع حاكم الجزائر حسان باشا ومن الحجج التي أعطت قابلية أكثر لتصديق التهمة هما لقاءين المشهورين لسيرفانتس مع حسان باشا في أكتوبر 1579–1577، بالنسبة لهذه التهمة قد لاقت تجاوب مع بعض المؤرخين والنفي مع آخرون فمثلا Canavaggio الذي جادل وقال أنه يستحيل إثبات شيء لا توجد حوله أدلة لأن سيرفانتس لم يترك وثائق أو كتابات تروي حياته الشخصية والعاطفية،[2] وبالنسبة للمؤرخ Blas Matamaro فقد نظر إلى سيرفانتس بعبارات barrocos " ...كان أهل هذه الفترة ملثمين وهاربين ومدمنين على الخيال والتنكر، تحفة هذه المناورات هي شخصية دون كيشوت، الذي لا نعرف أصله، وكذلك لقبه الحقيقي، ولا يمكننا حتى التأكد مما إذا كان مجنونا أو عاقلا..." .[3] وبالنسبة للمؤرخين الذين شككوا في علاقة سيرفانتس مع حسان باشا مثل Emilio Sola y José F. de Peño هؤلاء الباحثين دعموا فرضياتهم بحجم التسامح والعفو الذي أقدم عليه حاكم الجزائر حسان باشا لسيرفانتس هذا الأخير حاول عدة مرات الهروب رفقة بعض أصدقائه وحال اكتشاف أمره يتحمل مسؤولية القيادة والتخطيط دون تلقي أي عقاب من حاكم عرف بالقسوة والصرامة لهذا اتهم بأنه مثلي جنسي وكنقد لهذه الادعاءات فان سيرفانتس كان يعتبر من الشخصيات المميزة الموصى عليها وقد تم دفع مبلغ كبير من قبل أباء التثليث لأجل تلخيصه. [4]

انتقد سيرفانتس مثل هذه الإعمال الغير الأخلاقية في عمله El trato de Argel وذكر أن العديد من الشباب المسيحيين الذين كانوا أسرى في مدينة الجزائر كانوا منغمسين في الممارسات الجنسية السلبية والتي عادة ما يكون ورائها إغراءات أو إجبار من قبل أسيادهم.[5] وكما قال الباحث Antonio Medena " ...إن استيعاب الثقافة الإسلامية من قبل سيرفانتس لا يأتي من عبودية الخمس سنوات في الجزائر العاصمة، لأنها كانت مشربة ومرتبطة بالبلد الأم اسبانيا امتداداً للقرون الوسطى..." [6]

---

[1] ibíd., p,113 ,414.
[2] María Antonia Garcés: op,cit,,pp , 200-201.
[3] María Antonia Garces: op, cit , p, 202.
[4] Kaled Mohammad : cervantes y el cautiverio historia de el captan cautivo, Universidad de Al-Azhar , www.pdffactory.com 10/11/2020, pp 14-15-16.
[5] Garces : op,cit, p, 203.
[6] Antonio Medena : op,cit,, p, 40.

أحيانا يعتبر التحول البسيط مشكلة أمام العودة إلى اسبانيا حيث يكون المرتد مجبرا في عرض قضيته أمام محاكم التفتيش وهي من تقرر إمكانية العودة للمجتمع المدني أو لا، [1] تزداد المشاكل سوءا بخصوص هؤلاء الفارين من شمال إفريقيا في حالة وصولهم يجب إعلام المكتب المقدس في المنطقة التي ينتمي إليها الأسير المرتد ثم تبدأ عملية التحري حوله هل جلب معه شهادة موقعة من رجال الدين أو الأسرى الذين كانوا برفقته؟ في مثل هذه الحالات يحصل معظمهم على قرار العفو، كما وجدت قضايا أكثر تعقيدا من السابقة كالقبض على المرتد في عرض البحر أو على أطراف سواحل الدولة المعتمدة بواسطة سفينة مسيحية، هنا تدور الاستجوابات حول طبيعة معاملته للأسرى المسيحيين هل كانت جيدة أم قاسية وأيضا تحوله كان عن قناعة أم مجرد تظاهر فقط فإذا ثبت أن ارتداده صحيح ومزال مصراً على معتقداته يحكم عليه بالتجديف في سفن galeras وربما حتى الموت. [2] كانت محاكم التفتيش أكبر عقبة في وجه هؤلاء "...إن محاكم التفتيش هي أكبر عقبة أمام العديد من المرتدين لمغادرة المغرب الكبير والذهاب إلى مواقعهم السابقة بحكم ليس لديهم أي ضمانات تقضي أن القضاة الكنسيين سيغفرون أخطائهم، من حيث المبدأ لم يكن المحققون قاسيين للغاية على المرتدين إذا لم يرتكبوا جرائم الدم بالنسبة للمسيحيين فان عودة المرتد إلى أحضان الكنيسة والمجتمع هو انتصار أخلاقي على الإسلام..."[3]. لقد كانت استجوابات المختصين في المحاكم الاسبانية صارمة ودقيقة جدا للمرتدين حتى اللباس كان ينظر إليه وفي إطار السياق نجد مثلا المشاكل التي واجهت مسيحيو الشرق خلال استجوابهم وهذا فقط لأن لهم لباس مشابه للباس الأتراك ولتفادي هذه المشكلة تم إصدار تعليمة في باليرمو سنة 1679-1680 تبين أن الملابس اليونانية والتركية متشابهة باستثناء لون العمامة اللون الأزرق للمسيحيين والأبيض للأتراك .[4]

بخصوص مسألة المرتدين الذين بقوا على أرض المسلمين ورغبوا في حصول على فرصة الاسترداد مثلهم مثل الأسرى المسيحيون قد أشير إلى هذه القضية دائما بين الحكومتين سواء في فترة الصراع أو السلام ولطالما رفضت الحكومة الاسبانية بمدريد النظر في قضية هؤلاء فعلى سبيل المثال في مفاوضات السلام الأولى 14 جوان 1785 في الجزائر تم مقاطعة استرداد هؤلاء حيث أعطيت تعليمات دقيقة لكونت اسكبلي cond de expilly ومدير المستشفى بالجزائر العاصمة F. Álvaro López إنقاذ الأسرى المسيحيين المميزين والمخلصين لدينهم فقط واستعباد فكرة تخليص المرتدين ولكن فيما بعد سيغير الملك موقفه نسبيا إلى إنقاذ جزئي.[5]

6. خاتمة:

[1] Mercedes García-Arenal-Miguel Ángel de Bunes: (1992), Los españoles y el norte de África siglos XV-XVIII, España, Editorial Mapfre , p, 247-248

[2] Ibid : p, 252.

[3] Mercedes : op cit,p, 253.

[4] Bortolme: op,cit, p, 374

[5] Ismet Terk : op,cit, p, 111

ومما ذكر سابقا نستنتج أن مسألة الأسرى بين الجزائر واسبانيا كانت من بين القضايا الشائكة التي نوقشت بين البلدين من خلال المراسلات والمعاهدات، نجد من هؤلاء فئة المرتدين أي أولئك الذين خرجوا عن الكاثوليكية واتبعوا دين محمد خلقت هذه الفئة جدلا واسعا لدى الحكومة الاسبانية ورجال الدين الكاثوليك حيث تم رفض استردادهم وتقبلهم مرة أخرى في المجتمع المسيحي أو حتى مناقشة قضيتهم في المعاهدات، لكن الحكومة الجزائرية قد تدخلت أحيانا من أجل تسوية هذه المسألة وإقحام المرتدين ضمن عموم الأسرى حتى يتم فدائهم.

- كان على المرتدين الراغبين في العودة إلى اسبانيا حال وصولهم التوجه إلى المحكمة القريبة في منطقتهم وعرض قضيتهم بكل حوافرها " أسباب وظروف الارتداد، كيف تعامل مع الدين الجديد ومع الأسرى المسيحيين" وفي الغالب يتم إصدار قرار العفو ويكون العقاب مع الفئة التي بقيت مصرة على الدين الجديد حيث يتم إرسالهم إلى التجديف في سفن قالار .
- كان تحول أغلبية المرتدين اختياري و بمحض إرادتهم ولم يجبرهم أسيادهم أو حاكم الجزائر على فعل ذلك والدليل على ذلك الأسرى الفارون من الثكنات الاسبانية إلى مدينة الجزائر، وما تم سرده في كتابات رجال الدين مجرد أكاذيب ومغالطات لأجل تضخيم معاناة الأسرى حتى يسهل جمع الأموال الفداء.
- وجدت بعض التحولات الدينية الغير الحقيقية في أوساط المرتدين والتظاهر فقط بأنهم مسلمين لتخلص من العبودية الدائمة والتي تكون عادة بعد فقدان الأمل في التحرير من قبل الآباء الفادين فيكون اختيارهم لهذه الطريق من اجل تحسين ظروف عيشهم أو تحقيق الثروة أو السلطة التي لم يستطيعوا تحقيقها في بلدانهم الأصلية.
- مثلما وُجد مسلمون جدد في شمال إفريقيا في الفترة الحديثة وُجد مسيحيون جدد في اسبانيا وأوروبا وتستحق هذه الإشكالية التوقف والبحث في خلفياتها.

7. **قائمة المراجع** :

- **المؤلفات:**

1. دي ريكار، مارتين: (2017)، مقاربة من الدون كيشوط، ترجمة وتعليق، عبد الله حمادي، الجزائر، منشورات الوطن.
2. المدني أحمد توفيق:(2009)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1491-1792،ط3، الجزائر، دار البصائر .
3. مروش، منور : (2009)، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني " القرصنة، الأساطير، والواقع، دط، ج2، الجزائر، دار القصبة للنشر.
4. سامح ألتر،عزيز: (1989)، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر، محمد علي عامر، ط1، بيروت، دار النهضة.
5. سبينسر، وليام: (2006) ، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دط، الجزائر، دار القصبة للنشر.
6. شوفاليه، كورين: (2007)، الثلاثون السنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، تر، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية.
7. Barrio Gózalo, Maximiliano: (2006), esclavos y cautivos conflicto entre la cristiandad y el Islam en el siglo XVIII, España,Junta de Castilla y león consejería de cultura y turismo.
8. Bartolome y Lucile Bennassar: Los cristianos de Ala " la fascinant aventura de los renegados tr, José Luis Gil Aristu , Nerea
9. Cervantes, de Miguel : (2015), Don Quijote, España, Real Academia española

10. de Sosa , Antoño: Dialogo de los mártires de Argel, Hiparión, Madrid, España
11. Dolores torreblanca roladan, Noria: Malagueños cautivos en el norte de África " siglo XVIII" , Universidad de Málaga.
12. Friedman, Ellen G : (1939) , Spanish captives in North Africa in the Early Modern Age, the University of Wisconsin press.
13. Garcés María , Antonia : (2005), Cervantes en Argel Historia de un cautivo, Gredos Madrid, Biblioteca Románica Hispánica.
14. I. García Aguilarl Gomez Canseco y J.Saez: (2016), El teatro de Miguel de cervantes, Marid, visar Libros
15. Medina, Molera Antonio : (2005) , Quijote e Islam, Barcelona, España, edicionescarena
16. Mascarenhas:, Joao : (1993), Esclave A Alger récit de coptivité de Joao Mascarenhas 1621-1626, tr de portugais, Paul Teyssier, Paris, chandeigne
17. Sola, Emilio , Jose F.de la Peña: (1995), Cervantes y la Berberia " Cervantes mundo turco-berberisco y servicios secretos en la época de Felip II, España, Fondo de cultra Economica.
18. Terki, Ismat : (2011), Relaciones políticas y comerciales entre España y la Argelia Otomana 1700-1830, España,Universidad de Alcalá.

- **المقالات:**

1- بونو سالفاتوري : (1985)، وضع الجاليات الأوروبية في المغرب، أعمال الملتقى الثامن حول الفكر الإسلامي، ايطاليا، مجلة الأصالة، السلسة الرابعة، العدد 25، ص ص،138، 152.

2- Daniel Eisenberg : (1996), Cervantes , autor de la Topografía e historia general de Argel publicada por Diego de Haedo, Cervantes: Bulletin of the Cervantes Society of America, N 16, pp, 32-53.
3- Maximiliano Barrio Gózalo: (2003) , los cautivos españoles en Argel durante el siglo ilustrado, Universidad de Salamanca, cuad. diecioch, N4, pp, 135-174.
4- Rudy chaulet et Olga Ortega:(2014) , le rachat de captifs espagnols a Alger au XVIe siècle-le cas de la rédemption de Diego de Cisneros 1560-1567, cahiers de la Méditerranée, N87 .

- **مواقع الانترنيت :**

1- Kaled Mohammad : cervantes y el cautiverio historia de el captan cautivo, Universidad de Al-Azhar :
www.pdffactory.com 10/11/2020